

البَابُ الرَّابِعُ عَشَرَ

ستر الله

[لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلا للقبول] .

قلت : لأن العمل الذى يكون أهلا للقبول ، هو الذى تتوفر فيه شروط القبول ، وهو سر الإخلاص وغاية الحضور ، والتبرى فيه من الحول والقوة وهذا فى غاية الندور ، فلولا أن الله سبحانه تفضل علينا بجميل ستره ، فغطى مساوينا بجلال لطفه وبره ، ما كان عمل أهلا للقبول أصلا ، ولكن الذى من بوجود الأعمال بمن بوجود القبول والإقبال .

قال بعضهم : ما هناك إلا فضله ، ولا نعيش إلا فى ستره ، ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم .

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : مسكين ابن آدم ، جسم معيب ، وقلب معيب ، يريد أن يخرج من معين عملا بلا عيب اهـ .

قلت : ولهذا المعنى قال تعالى :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا)^(١) .

فعبّر عن التى تدل على التجاوز ولم يقل نتقبل منهم ، فكأنه قال : أولئك الذين نتجاوز عنهم فى أعمالهم فنتقبلها منهم ، والله تعالى أعلم .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« الْبَلَاءُ وَالْهَوَى وَالشَّهْوَةُ مَعْجُونَةٌ بِطِينِ آدَمَ » .

قيل : وهو معنى قوله تعالى :

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ)^(٢) .

(٢) (الإنسان : ٢) .

(١) (الأحقاف : ١٦) .

أى أخلاط ، فاختلط به البلاء والهوى والشهوة ، فركب ابن آدم منها ، فلزمته الثلاثة مادامت بنيته قائمة وبشريته موجودة ، فإذا انهدمت البشرية حساً أو معنى لم يبق حكم النطفة الإمشاجية ، وصار الحكم للروح النورانية ، والله تعالى أعلم .

فإذا تقرر أن عملنا مدخول ، وليس أهلاً للقبول ، لولا جميل ستره المأمول ، علمت أن افتقارنا إلى علمه وعفوه في حال الطاعة ، أعظم من افتقارنا إليه في حال المعصية ، كما أبان ذلك بقوله :

[أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إليه إذا عصيته] .

قلت : وذلك لأن الطاعة بساط العز والرفعة ، وللنفس فيها شهوة ومتمعة ، ولأن الناس يلحظون صاحب الطاعة الظاهرة ، وينظرونه بعين التعظيم ، ويبادرون إليه بالخدمة والتكريم ، وكل ما عظم في عين الخلق سقط من عين الحق ، إن كان يفرح بذلك ويقنع به دون الملك الحق ، بخلاف المعصية فإنما هي بساط الذل والانكسار ، ومحل السقوط والاحتقار ، وكل ما سقط من عين الخلق عظم في عين الحق ، فكان العبد في حال طاعته لربه أحوج إلى حلمه وعفوه منه في حال معصيته ، لأن الطاعة التي ينشأ عنها العز والاستكبار ، أقبح من المعصية التي تورث الذل والافتقار ، بل في الحقيقة ليست بطاعة ، لأن الطاعة التي توجب البعد ليست بطاعة ، والمعصية التي توجب القرب ليست بمعصية .

وفي الحديث : « يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي » .

ومن كان الله عنده فهو أعظم من ألف مطيع توجب له طاعته طرده وبعده . أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام : قل لعبادى الصديقين لا يغتروا ، فإنى إن أقم عليهم عدلى وقسطى أعذبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادى الخاطئين لا يئسوا من رحمتى ، فإنه لا يكبر على ذنب أغفره اهـ .

وقال الشيخ أبو زيد رضى الله عنه : توبة المعصية واحدة ، وتوبة الطاعة

ألف توبة ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى استغفر ثلاثاً تعليماً للأمة في شهود التقصير ، وإلا فلا استغفار من طاعة ، ولا ذنب على المختار صلى الله عليه وسلم .

ولما كانت المعصية بساط الذل والاحتقار كما تقدم ، وهى أقرب لمقام العبودية ، والطاعة من بساط العز والرفعة ، فافتقرت إلى حلم الله أكثر ، صار الناس يطلبون الستر فى المعصية أو عنها خوفاً مما ينشأ عنها ، كما أبان ذلك بقوله :

[الستر على قسمين : ستر عن المعصية ، وستر فيها . فالعامة يطلبون الستر من الله فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق . والخاصة يطلبون من الله الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق] .

قلت : الستر هو الحفظ والتغطية ، وهو فى الحس من الآفات والبليات التى توجب هلاكه ، وفى المعنى من الفضيحة والمقت وسقوط المرتبة . وهو باعتبار المعصية على قسمين : قسم يقع الستر فيها فلا يفضح صاحبها ، وقسم يقع الستر عنها فلا يقع العبد فيها ولو طلبها لما شمله من حفظ الله ورعايته .

فالعامة يطلبون الستر من الله فيها مع وقوعها لئلا يسقطوا من عين الخلق ، فهم : (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ^(١)) ، (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ^(٢)) .

فمحط نظرهم إنما هو شهود الخلق غائبين عن نظر الملك الحق ، وذلك لضعف إيمانهم ، وقلة يقينهم ، وانطماس بصيرتهم . وفى بعض الأخبار :

« يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا عِبَادِى إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّى لَا أَرَاكُمْ فَالْخَلَلُ فِى إِيمَانِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّى أَرَاكُمْ فَلِمَ جَعَلْتُمُونِى أَهْوَنَ النََّاظِرِينَ إِلَيْكُمْ » اهـ .

وأما الخاصة فهم يطلبون من الله الستر عنها والعصمة منها ، خشية أن يسقطوا من عين الحق ، لأن صدور المعصية من العبد سوء أدب ، ومن أساء الأدب مع الأحباب طرد إلى الباب ، فإذا وقعت منهم معصية بادروا إلى الاعتذار ، وصحبهم الخجل والانكسار ثم جدوا في سيرهم ولم يقفوا مع نفوسهم ، إذ لا وجود لها في نظرهم ولا التفات لهم إلى الخلق ، إذ لم يبق في نظرهم إلا الملك الحق ، غابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق ، أو بشهود المعنى عن رؤية الحس ، أو بشهود المتوسط عن الواسطة .

وأما خاصة الخاصة فلا يطلبون شيئاً ولا يخافون من شيء ، صارت الأشياء عندهم شيئاً واحداً ، واستغنوا بشهود واحد عن كل واحد ، فهم ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة فيتلقونه بالقبول والرضا ، فإن كان طاعة شهدوا فيها المنة ، وإن كان معصية شهدوا فيها القهرية ، وتأدبوا مع الله فيها بالتوبة والانكسار ، قياماً بأدب شريعة النبي المختار ، صلى الله عليه وسلم .
وقد وردت أحاديث في المقامات الثلاثة تعليماً للأمة . فقد دعا عليه الصلاة والسلام بالستر على المساوي ومنها ، وهي العصمة والحفظ ، وطلب مقام الرضا والتسليم لأحكام الله القهرية ، كل ذلك منشور في كتب الأحاديث فلا نطيل به .

حمد الله على ستره

ثم إذا ستر الحق تعالى مساويك وذنوبك ، ثم توجه الناس إليك بالتعظيم والمجد والتكريم ، فاعرف منه الله عليك ، وانظر من الممدوح في الحقيقة ؟ هل أنت أو من ستر مساويك ، كما أبان ذلك بقوله :
[من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره ، فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشرك] .

قلت : إذا كان الحق تعالى تولى حفظك برعايته ، وستر مساويك بستر عنايته ، فغطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته ، ثم توجه الناس إليك بالتعظيم والتمجيد والتكريم ، فاعرف منة الله عليك ، وانعزل عن شهود نفسك ، فمن

أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره .

(وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا)^(١)
 (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا)^(٢) .

فالحمد في الحقيقة إنما هو لمن سترك لا لمن أكرمك ، إذ لو أظهر للناس ذرة من مساويك لمقتوك وأبغضوك ، فاشكر الله على ما أسدى إليك من الكرم ، وغطى عليك من المساوى التي توجب أنواع الإذاية والنقم . قال الشيخ زروق رضى الله عنه : إذ لولا ستره عن المعاصى ما كنت مطيعاً ، ولولا ستره فيها لكنت مهاناً عند الخلق ومخصوصاً بالمقت بينهم .
 (وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)^(٣) .

فالخلق كلهم إنما يتعاملون بينهم بستر مولاهم ، ولو خلا عبده من ستره لأبغضه أحب الناس إليه ، ولآذاه أشفق الخلق عليه ، ولأهلكه أرأف الخلق به ، والله در القائل :

يَظُنُّونَ بِي خَيْرًا وَمَا بِي مِنْ خَيْرٍ	وَلَكِنِّي عَبْدٌ ظَلُومٌ كَمَا تَدْرِي
سَتَرْتُ عِيُوبِي كُلَّهَا عَنْ عِيُونِهِمْ	وَالْبَسْتَنِي ثَوْبًا جَمِيلًا مِنَ السَّيْرِ
فَصَارُوا يُحِبُّونِي وَمَا أَنَا بِالَّذِي	يُحِبُّ ، وَلَكِنْ شَبَّهُونِي بِالْغَيْرِ
فَلَا تَفْضَحْنِي فِي الْقِيَامَةِ بَيْنَهُمْ	وَكُنْ لِي يَا مَوْلَايَ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ

ولما بلغت الإذاية كل مبلغ من حبيب الله صلى الله عليه وسلم ما زاد على أن قال : « لَا غِنَى لِي عَنْ عَافِيَتِكَ ، عَافِيَتِكَ أَوْسَعُ لِي » الحديث اهـ .

وسياتى التقسيم في شهود الخلق في حالة النعم ، وأن الناس على ثلاثة أقسام : قوم عوام لا يشهدون إلا الخلق ، وقوم خواص لا يشهدون إلا الخالق ، وقوم خواص يشهدون الخالق في الخلق ، والموسوط في الواسطة ؛ فيعطون كل ذى حق حقه كما يأتى مبيناً إن شاء الله .

وإذا تحققت أن الذى أكرمك هو الذى ستر عيوبك وغطى مساويك ، بعد اطلاعه على خفاياها ، وعلمه بخباياها ، فاتخذها صاحباً ، وكن له مراقباً ، ودع الناس جانباً ، كما نبه عليه بقوله :

[ما صَحْبُكَ إِلَّا مِنْ صَحْبِكَ وهو بعيبك عليم ، وليس ذلك إلا مولاك الكريم] .

قلت : وإذا علمت أنه ليس لك صاحب إلا مولاك ، فاعرف حقيقة صحبته ، والزم الأدب فى ظاهرك وباطنك ، واستحى منه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه :

« اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ ، قَالُوا : إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، قَالَ لَهُمْ : الْحَيَاءُ مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ ، أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَذْكُرَ الْقَبْرَ وَالْبَلَى ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » اهـ .

فالصاحب الذى يدوم لك هو الذى يصحبك وهو عالم بعيبك ، لأن ذلك داع للسلامة من التكلف والرياء والتصنع ، وليس ذلك إلا مولاك العالم بخفاياك ، المطلع على سرّك وعلاانيتك ، إن عصيته سترك ، وإن اعتذرت إليه قبل عذرك . وقد قيل من الحكمة فى قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)^(١) .

مع أن الكل ملكه ، ثلاثة أشياء :

أحدها : البشارة بعدم الرد بالعب ، لأن المشتري عالم به .

الثانى : ليسلم العبد نفسه إليه فيتولى تدبيره ، إذ لا يتم بيع إلا بالتسليم ، ولا كفالة إلا بعد إقباض .

الثالث : إظهاراً لتمام الفضل فى ظهور النسبة لله سبحانه . وذكر الصحبة فى

جانب الحق وقعت في حديث : « انت الصَّاحِبُ في السفرِ » .

واختلف في إطلاقه في غير ذلك المحل ، والظاهر أن الشيخ يرى ذلك في محل إشارة الأدب والانحياس ، وعليه مر أبو حامد الغزالي في بعض كتبه ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

صحبة العارفين

واعلم أن الأمر الذى يرغَّب في الصحبة ويعقد المحبة والمودة أمران : أحدهما : ما تقدم من كون الصاحب يغطى شينك بحلمه ويستر وصفك بوصفه .

والثانى : كونه يحبك ويطلبك إلى حضرته من غير غرض ولا منفعة له في صحبتك ، وإلى الثانى أشار بقوله :

[خير من تصحب من يطلبك لا لشيء يعود منك إليه] .

قلت : ولا يوجد هذا الوصف المجيد إلا للغنى الحميد ، الفعال لما يريد ، يحب من يشاء بلا علة ولا سبب ، ويمقت من يشاء بلا ضرر يلحقه ولا تعب ، يقرب من يشاء بلا عمل ، ويبغد من يشاء بلا زلل .

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)^(١) (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)^(٢)
(أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا)^(٣)

وكلامنا إنما هو مع أهل التحقيق ، وأما باعتبار الحكمة وأهل التشريع فلا يظلم ربك أحداً ، ولكن فاعل السبب هو فاعل المسبب .
« مَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » وللجيل رحمة الله :

إِذَا كُنْتُ فِي حُكْمِ الشَّرِيعَةِ عَاصِيًا فَإِنِّي فِي حُكْمِ الْحَقِيقَةِ طَائِعٌ
فخير من تصحبه أيها الإنسان مولاك ، الذى يطلبك لحضرته ويحتبيك

(١) الأنبياء : ٢٣ . (٢) الأنعام : ١١٢ . (٣) الرعد : ٣١ .

لمحبته ، من غير نفع يعود منك إليه ؛ وإنما هو برور وإحسان منه إليك ، فكيف تتركه وتطلب الأنس بغيره وضرره أقرب من نفعه .
قال بعضهم : جرب الناس تجدهم عقارب ، فإذا طلبت الصحبة فاصحب العارفين الذين ينهضك حالهم ، ويدلك على الله مقامهم ، والله در صاحب العينية حيث يقول في عينيته :

فَشَمَّرُ وَلَدٌ بِالْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ	لَهُمْ مِنْ كِتَابِ الْحَقِّ تِلْكَ الْوَقَائِعُ
هُمْ الذَّخَرُ لِلْمَلْهُوفِ وَالْكَتَرُ وَالرَّجَا	وَمِنْهُمْ يَنَالُ الصَّبُّ مَا هُوَ طَامِعُ
بِهِمْ يَهْتَدِي لِلْعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِي الْعَمَى	بِهِمْ يُجَذَّبُ الْعُشَّاقُ وَالرَّبِيعُ شَاسِعُ
هُمْ الْقَصْدُ وَالْمَطْلُوبُ وَالسُّؤْلُ وَالْمُنَى	وَأَسْمُهُمُ لِلصَّبْرِ فِي الْحُبِّ شَافِعُ
هُمْ النَّاسُ فَالْزَمِ إِنْ عَرَفْتَ جَنَابَهُمْ	فَفِيهِمْ لِضُرِّ الْعَالَمِينَ مَنَافِعُ

وقال في التحذير من صحبة غيرهم من الغافلين والعوام :

وَقَاطِعُ لِمَنْ وَاصَلَتْ أَيَّامُ غَفْلَةٍ	فَمَا وَاصَلَ الْعُدَالَ إِلَّا مُقَاطِعُ
وَجَانِبُ جَنَابِ الْأَجْنَبِيِّ لَوْ أَنَّهُ	لِقُرْبِ انْتِسَابٍ فِي الْمَنَامِ مُضَاجِعُ
فَلِلنَّفْسِ مِنْ جُلَاسِهَا كُلِّ نِسْبَةٍ	وَمِنْ خُلَّةٍ لِلْقَلْبِ تِلْكَ الطَّبَائِعُ

والحاصل : أن صحبة من يوصل إلى الله فما هي إلا صحبة الله ، إذ ما ثم سواه ، والنظر إلى العارف بالله ، فإنما هو نظر إلى الله ، إذ لم تبق فيه بقية عليه لغير الله ، فصار نوراً محضاً من نور الله ، وفيهم قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ لِلَّهِ رِجَالاً مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ سَعِدَ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا » اهـ .

وهم موجدون لا ينقطعون أبداً ، ظاهرون ظهور الشمس لا يخفون إلا على من أراد الله منه طرداً وبعداً ، والعياذ بالله من السلب بعد العطاء ، ومن سوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، وعضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وفجأة النعمة . آمين .

ثم فائدة صحبة العارفين ، وهو حصول اليقين ، كما أشار إليه بقوله :
[لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ،
ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفةً الفناء عليها] .

قلت : اليقين هو العلم الذى لا يزاحمه وهم ، ولا يخالطه ريب ، ولا يصحبه اضطراب مشتق من يقن الماء : إذا حبس ولم يجز ، شبه به العلم إذا صحبته الطمأنينة ، ولم يبق للقلب فيه تحرك ولا اضطراب ، وإشراق نوره وهو ظهور أثره على الجوارح ، فيظهر فيها الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، ويظهر منه الانحياش إلى الله ، والاشتياق إلى حضرة جماله ، والسكون والخضوع تحت قهر جلاله ، والمصارعة إلى ابتغاء مرضاته ، والمبادرة إلى مظان محابه ، ولهج اللسان بذكره ، وشغل القلب بالفكرة فى عظمته ، وهيمان الروح فى حضرة قربيه ، وسكرها من شراب حبه ، واغتمارها بشهود قربيه ، فهذه علامة إشراق نور اليقين فى القلب . ومن علامته أيضاً أن يصير الآجل عاجلاً ، والبعيد حاصلًا ، والغيب شهادة : (إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)^(١) .

ولنا فى هذا المعنى :

فَلَا تَرْضَى بِغَيْرِ اللَّهِ حَبًّا وَكُنْ أَبَدًا بِعِشْقٍ وَاشْتِيَاقٍ
تَرَى الْأَمْرَ الْمَغِيبَ ذَا عِيَانٍ وَتَحْظَى بِالْوَصَالِ وَبِالتَّلَاقِ

كنت ذيلت بهما قول القائل :

فَلَا دَهْشٌ وَحَامٍ الْحَيِّ حَيٌّ وَلَا عَطَشٌ وَسَاقِي الْقَوْمِ بَاقٍ
فَمَا الدُّنْيَا بِبَاقِيَةٍ لِحَيٍّ وَمَا حَيٌّ عَلَى الدُّنْيَا بِبَاقٍ

فلو أشرق نور اليقين فى قلبك لرأيت الآخرة الآتية حاضرة لديك ، أقرب إليك من أن ترحل إليها ، إذ هى الراحلة إليك والمدركة لك ، ولرأيت محاسن الدنيا الوهمية الفانية ، قد ظهرت كسفةً الفناء عليها : أى قد انكسف نور وجودها بظهور ظلمة فنائها فصار ما كان ظاهرًا باطنًا ، وما كان باطنًا صار

ظاهرًا ، وما كان كثيفًا صار لطيفًا ، وما كان لطيفًا صار كثيفًا ، وما كان غيبًا صار شهادة ، وما صار شهادة صار غيبًا ، وإنما بعد ذلك عن الخلق ضعف إيمانهم وقلة نور إيقانهم ، ولو أشرق نور اليقين في قلوبهم ، لرأوا الدنيا مكسوفة أنوارها ، بادية عوارها ، كما رآها حارثة رضى الله عنه حين أخبر عن حقيقة إيمانه .

فقد روى عن أنس رضى الله عنه قال :

« بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْشِي إِذِ اسْتَقْبَلَهُ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ . فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ ؟ قَالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ حَقًّا ، فَقَالَ لَهُ : انْظُرْ مَا تَقُولُ ، فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا ، أَيْ أَدْبَرْتُ وَهَرَبْتُ ، فَاسْهَرْتُ لَيْلِي ، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي ، فَكَأَنِّي بِعَرْشِ رَبِّي بَارِزًا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَعَاوَنُونَ فِيهَا ، فَقَالَ لَهُ : أَبْصُرْتَ فَالْزَمْ ، عَبْدُ نَوَّرِ اللَّهِ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ ؛ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَدْعُ اللَّهَ لِي بِالشَّهَادَةِ ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ شَهِيدًا ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي ، فَإِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ تَرَى مَا أَصْنَعُ ، فَقَالَ : أَوْ هَبْلَتْ ؟ أَجَنَّةٌ هِيَ ؟ إِنَّهَا جَنَانٌ ، وَإِنَّ أَبْنَكَ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى ، فَرَجَعْتُ وَهِيَ تَضْحَكُ وَتَقُولُ بَخٍ بَخٍ يَا حَارِثَةُ » إ ه .

وكما رآها معاذ بن جبل رضى الله عنه حين دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال له :

« كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا مُعَاذُ ؟ قَالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا . فَقَالَ : إِنَّ لِكُلِّ

قَوْلٍ مُصَدِّقًا ، وَلِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً ، فَمَا مُصَدِّقُ مَا تَقُولُ ؟ فَقَالَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَصْبَحْتُ صَبَاحًا قَطُّ إِلَّا ظَنَنْتُ لَا أُمْسِي ، وَمَا أُمْسَيْتُ
قَطُّ إِلَّا ظَنَنْتُ لَا أَصْبِحُ ، وَلَا خَطَوْتُ خُطْوَةً قَطُّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنِّي لَا أَتْبِعُهَا
بِأُخْرَى ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعِي إِلَى كِتَابِهَا مَعَهَا
نَبِيُّهَا وَأَوْثَانُهَا الَّتِي كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عُقُوبَةِ
أَهْلِ النَّارِ وَثَوَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ . فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَرَفْتِ
فَالْزَمِي .

فهذان الرجلان الأنصاريان أشرق نور الإيقان في قلوبهما ، وشرح الله به
صدورها فرأيا ما كان آجلا عاجلا ، وما كان آتيا واصلا .
وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الْقَلْبَ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ . قِيلَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لِدُلكَ مِنْ عَلَامَةٍ يُعْرَفُ بِهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . التَّجَافِي عَنْ
دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ . »

أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمه الله : اليقين نور يجعله الله في قلب العبد
حتى يشاهد به أمور آخرته ، ويخرق به كل حجاب بينه وبينها حتى يطالع الآخرة
كالشاهد لها .

قلت : فإذا تكامل إشراق نور الإيقان غطى وجود الأكوان ، ووقع العيان
على فقد الأعيان ، ولم يبق إلا نور الملك الديان ، كما أشار إلى ذلك بقوله :
[ما حجبك عن الله وجود موجود معه ، إذ لا شيء معه ، ولكن حجبك
عنه توهم موجود معه] .

قلت : الحق تعالى ظاهر ، ونوره للبصائر باهر ، وإنما حجبه مقتضى اسمه
الحكيم واسمه القاهر ، فما حجبك عن شهود الحق وجود شيء معه :

(اِلٰهٌ مَّعَ اللّٰهِ ، تَعَالٰى اللّٰهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ)^(١) .

ولكن حجبك عن شهوده توهم وجود موجود معه ولا شيء معه ، وكما كان ولا شيء ، بقى ولا شيء (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)^(٢) :

واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، فالفعل لا يصدر من غير صفة ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فالفعل متحد والفاعل واحد ، والصفة متحدة والمتصف بها واحد .

وللشئ يرى رضى الله عنه :

صِفَاتِي لَا تَخْفَى لِمَنْ نَظَرَ وَذَاتِي مَعْلُومَةٌ تِلْكَ الصُّورُ
فَإِنْ عَنِ الْإِحْسَاسِ تَرَى عِبْرَةً

وسبب توهم الغيرية عدم الفكرة ، وسبب عدم الفكرة حب العاجلة ، فهي الشاغلة للقلوب عن السير إلى حضرة علام الغيوب . وحكمة حب الدنيا ظهور القهرية ، فمن قهاريته تعالى أن احتجب بلا حجاب ، وغطى نور شمسه بلا سحب .

وأيضاً قوالب العبودية ، حجبت مظاهر أنوار الربوبية ، ووجود الحكمة ، ستر ظهور القدرة .

وقال بعض العارفين : الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة ، ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ولا كم ولا كيف ولا جسم ولا جوهر ولا عرض ، لأنه للطفه سار في كل شيء ، ولنوريته ظاهر في كل شيء ، ولا إطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف غير متقيد بذلك ؛ ومن لم يذق هذا ولم يشهده فهو أعمى البصيرة ، محروم عن مشاهدة الحق اهـ .

ومن كلام ابن وفا رضى الله عنه :

هُوَ الْحَقُّ الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ هُوَ الرَّحْمَنُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ

هُوَ النُّورُ الْمُبِينُ بَغَيْرِ شَكٍّ هُوَ الرَّبُّ الْمُحَجَّبُ فِي الْعَبِيدِ
هُوَ الْمَشْهُودُ فِي الْأَشْهَادِ يَبْدُو فَيُخْفِيهِ الشُّهُودُ عَنِ الشَّهِيدِ
هُوَ الْعَيْنُ الْعَيَانُ لِكُلِّ غَيْبٍ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ
جَمِيعُ الْعَالَمِينَ لَهُ ظِلَالٌ سُجُودٌ فِي الْقَرِيبِ وَفِي الْبَعِيدِ
وَهَذَا الْقَدْرُ فِي التَّحْقِيقِ كَافٍ فَكُفَّ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ الْمَزِيدِ

وقال الشيخ القطب مولاي عبد السلام بن مشيش مخاطباً لوارثه الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنها في وصية له وقد تقدمت : حدّد بصر الإيمان تجد الله تعالى في كل شيء ، وعند كل شيء ، ومع كل شيء ، وقبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وفوق كل شيء ، وتحت كل شيء ، وقريباً من كل شيء ، ومحيطاً بكل شيء ، بقرب هو وصفه ، وبحيطة هي نعتة ، وعدّ عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات . وعن الصحبة والقرب في المسافات ، وعن الدور بال مخلوقات ، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو هو هو : « كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ » اهـ .

قال بعضهم : ونبه بقوله وعد إلخ على أن ما جرى من كلامه من الظروف ليست بزمانية ولا مكانية ، لأنها من جملة الأكوان : وإنما هي أمور ذوقية ، فاعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه ، وتمسك بقوله عز وجل :
(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)^(١) .

وسلم ذلك لأهله فإنهم على بصيرة فيما رمزوا إليه مما ذاقوه ووجدوه ، بل هو من محض الإيمان وخالص العرفان ، وهو حقيقة التوحيد وصفو الإيمان . وأما قوله وهو الآن على ما هو عليه كان وإن لم يرد في الحديث الصحيح ، فهو في نفسه صحيح ، إذ لا وجود في الحقيقة للأشياء معه تعالى ، وإنما هي كالحيال ، ووجود الظلال ، فلا تنسخ أحديته ولا ترفع فردانيته .
وبالجملة فمن غلب عليه شهود الأحدية ، وكوشف بسر الوجدانية ،

واستغرق في الحقيقة العيانية ، انقطع عن الشعور بنفسه ، وغاب عن السوى بالكلية ، وإن رد إلى الشعور به رآه قائماً به وظاهراً فيه وبه وحكماً من أحكامه ا هـ .

وقال في لطائف المنن : وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجودُ الظلال والظل ، لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم .
وإذا ثبت ظلية الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر ، لأن الشيء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله ، كذلك أيضاً من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله ، فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا تعوق السفن عن التسيار ، ومن ها هنا تبين لك أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين الله تعالى ، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه ولا شيء أقرب من الله ، فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب ا هـ .

كان الله ولا شيء معه

ولما قرر أمر الوحدة ونفى وجود الغيرية ، استشعر سائلاً يقول له : وهذه المكونات الظاهرة فما نقول فيها مع ثبوت الوحدة ؟ فأجاب بأنها قائمة به ، ولولا ظهور نوره فيها ما ظهرت ، كما بين ذلك بقوله :
[لولا ظهوره في المكونات ما وقع عليها وجود الصفات ، ولو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته] .

قلت : كان الله ولا شيء معه ، فكانت الخمرة الأزلية القديمة لطيفة خفية نورانية روحانية ، وليس هناك شكل ولا رسم متصفة بصفات المعاني والمعنوية ، متسمية بأسمائها القديمة ، منعوتة بنعوت الجلال والجمال ، فاقتضت الخمرة ظهور حسنها وجمالها ، واقتضت الصفات ظهور آثارها ، والأسماء ظهور مطالبها ، فقبضت الصفات من النور اللطيف قبضة نورانية لمقتضى اسمه الظاهر واسمه القادر ، فطلبها أيضاً اسمه الباطن واسمه الحكيم فأبطنها في حال ظهورها ، وغطاها في حال بروزها ، فكانت ظاهرة باطنة ، ثم تفرعت تلك

القبضة على تفاريع كثيرة بعدد الصفات ، وتنوعت على أجناس كثيرة بتنوع
الأسماء :

* فَاَلْمَاءُ وَاحِدٌ وَالزَّهْرُ الْوَانُ *

وفي ذلك يقول صاحب العينية :

وَكُلُّ الْوَرَى طُرًّا مَظَاهِرُ طَلَعَتْ مَرَاءٍ بِهَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِ لَامِعٍ
ظَهَرَتْ بِأَوْصَافِ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا أَجَلٌ لِي ذَوَاتُ الْكُلِّ نَوْرِي سَاطِعُ

فبحر الجبروت فياض إلى عالم الملكوت ، ثم احتجب بالحكمة ، فصار
ظاهره ظلمة وباطنه نوراً ، ظاهره حكمة وباطنه قدرة ، ظاهره ملك وباطنه
ملكوت ، والجميع جبروت .

فإذا تقرر هذا علمت أن الأكوان لا وجود لها من ذاتها ، فلولا ظهور الحق
بها ما ظهرت . ولا وقع عليها أبصار الخلق كما قال القائل :
مَنْ لَا وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنٌ مُحَالِ
وقال آخر :

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْحَقُّ لَمْ يَبْقَ كَائِنٌ فَمَا تَمَّ مَوْصُولٌ وَمَا تَمَّ بَائِنٌ
بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ الْعِيَانِ فَمَا أَرَى بَعَيْنِي شَيْئًا غَيْرَهُ إِذْ أَعَايِنُ

وظهوره تعالى بواسطة تجليات الأكوان فيه لطف كبير ، إذ لا يمكن شهوده
ومعرفته إلا بواسطة هذه التجليات ، ولو ظهر بالأوصاف التي كان عليها في
الأزل بلا واسطة لتلاشت الكائنات واضمحت .

وفي الحديث : « حِجَابُهُ النُّورُ ، لَوْ كُشِفَ عَنْهُ لَأُخْرِقَتْ سُبُحَاتُ
وَجْهِهِ كُلُّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ » اهـ .

وهذا معنى قوله : لو ظهرت صفاته اضمحت مكوّناته : أي لو ظهرت نعوته
الأصلية الأزلية لاضمحت المكونات الحديثة ، إذ الكائنات كلها تكثيف للأسرار
اللطيفة ، التي هي نعوت الخمرة الأزلية ، التي أشار إليها ابن الفارض في
خمريته بقوله :

صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلَا هَوًى وَنُورٌ وَلَا نَارٌ وَرُوحٌ وَلَا جِسْمٌ
تَقَدَّمَ كُلُّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا قَدِيمٌ وَلَا شَكْلٌ هُنَاكَ وَلَا رَسْمٌ

فلو ظهرت الأسرار اللطيفة لتلاشت الكائنات الكثيفة ، إذ لا ظهور للكثيف إذا رجع لطيفاً . ومماثال الكون إلا كالثلجة ظاهرها جامد وباطنها مائع ، فإذا ذوبت الثلجة رجعت إلى أصلها ماء ولم يبق للثلجة أثر . فكذاك المكونات الحسية إذا ظهرت أسرارها اللطيفة التي قامت بها ذابت ذواتها الكثيفة وتلاشت ورجعت لأصلها ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب العينية بقوله :

وَمَا الْكَوْنُ فِي التَّمَثَالِ إِلَّا كَثَلَجَةٍ وَأَنْتَ لَهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ نَابِعٌ
فَمَا الثَّلَجُ فِي تَحْقِيقِنَا غَيْرُ مَائِهِ وَغَيْرَانِ فِي حُكْمِ دَعْتِهِ الشَّرَائِعُ
وَلَكِنْ بِذَوْبِ الْمَاءِ يُرْفَعُ حُكْمُهُ وَيُوضَعُ حُكْمُ الْمَاءِ وَالْأَمْرُ وَقَعُ

فمن وقف مع ظاهر الثلجة أنكر الماء الذي في باطنها وكان جاهلاً بحقيقتها ، ومن نفذ إلى باطنها عرف أصلها وفرعها ، وكذلك الأكوان ظاهرها غرة لمن وقف مع كثافتها وباطنها عبرة لمن نفذ إلى أصلها ، وقد مثلوا أيضاً الكون بصورة جبريل حين كان يتصور في صورة دحية ، فمن رآه كثيفاً قال دحية وأنكر أن يكون ملكاً ، ومن عرف أصله لم ينكره ولم يقف مع ظاهره ، فإذا تلطّف ورجع إلى أصله ذهبت تلك الصورة واضمحلت فكذاك الكون إنما هو خيال ، فمادام موجوداً في الحس رأى وظهر ، فإذا رجع إلى أصله بظهور أسرارهِ التي قام بها اضمحل ولم يبق له أثر ، وقد أشار إلى هذا صاحب العينية أيضاً بقوله :

تَجَلَّيْتُ بِالتَّحْقِيقِ فِي كُلِّ صُورَةٍ فَفِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ جَمَالِي لَوَائِعُ
فَمَا الْكَوْنُ فِي التَّمَثَالِ إِلَّا كَدَحِيَّةٍ تَصَوَّرُ رُوحِي فِيهِ شَكْلٌ مُخَادِعُ

ويسمون هذه الأسرار التي قامت بها الأكوان معاني ، ويسمون الأكوان أواني حاملة للمعاني ، فلو ظهرت المعاني لاضمحلت الأواني ، ومن وقف مع حس الأواني حجب عن أسرار المعاني ، وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه :

لَا تَنْظُرْ إِلَى الْأَوَانِي وَخُضْ بِحَرَ الْمَعَانِي
عَلَّكَ أَنْ تَرَانِي

وقال ابن الفارض رضى الله عنه :

وَلُطْفُ الْأَوَانِي فِي الْحَقِيقَةِ تَابِعٌ لِلُّطْفِ الْمَعَانِي وَالْمَعَانِي بِهَا تَسْمُو

فالأواني كلها لطيفة في الحقيقة تابعة للطف المعاني لأنها منها ؛ وإنما تكثفت في حق أهل الحجاب الذين وقفوا مع ظواهر الأشياء ، واشتغلوا بخدمة الحس قلباً وقالباً ، فعظم عليهم الحس وقويت دائرة حسهم وغلظ الحجاب في حقهم ، فعبادتهم حسية ، وفكرتهم حسية وذلك لصحبتهم أهل الحس ، ولو صحبوا أهل المعاني لاشتغلوا بخدمة المعاني حتى تتلطف لهم الأواني .

قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى الله عنه : سألت الشيخ يعنى سيدى العربى بن عبد الله فقلت : ياسيدى كنت أظن أنه لا يشفى غليل الإنسان إلا الحس يعنى العبادة الحسية ، ولا ظننت قط أن فعل المعاني يشفى الغليل أبداً ، والآن وجدت نفسى بالعكس لا يشفى غليلها إلا المعاني ، فأجابنى بأن قال : يا ولدى لما كانت همتك مشورة للحسيات ، أمدك الله فيها فصرت لاتقنع إلا بالحسيات ، والآن انعكس الأمر لما وافقت أهل المعاني أثرت معرفتهم فيك بتشوير همتك لبلاد المعاني ، ولما انقلبت همتك عن بلاد الحس وشورت لبلاد المعاني ، أمدك الله فيها فصرت تقطع بالمعاني ، كما كنت تقطع بالحسيات اهـ مختصراً . فكل من صحب أهل المعاني وانقلبت همته لبلاد المعاني ، حتى صارت عبادته باطنية معنوية تلطفت في حقه الأواني ولم ير إلا المعاني .

قلت : ومما من الله على بصحبة أهل المعاني أنى إذا نظرت إلى الكون بعين بصيرتى من عرشه إلى فرشه ذاب وتلاشى ولم يبق له أثر :

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)^(١) .

تنبيه : سئل سيدى أحمد بن يوسف المليانى عن ذات الحق تعالى هل معنوية

أو حسية ؟ فقال : هى حسية لاتدرك ، قال سيدى عبد الله الهبطى : وهذا مما يدل على تحقيق معرفته .

قلت : ذات الحق تعالى موجودة لطيفة ، لاتدركها الأبصار ، ولاتكيفها العقول ، متصفة بصفات المعانى والمعنوية ، ولو كانت صفة أو معنى كما يزعمه النصارى لم تتصف بصفات المعانى ولا المعنوية ، لأن الصفة والمعنى لايقوم بنفسه ولا بد أن يقوم بغيره ، والصفة لاتتصف بصفة أخرى .

وأما قول بعض المتأخرين : المعنى لايقبض إلا بالحس ، وقولهم أيضاً : لاتنظر إلى الأوانى ، وخض بحر المعانى ، وقولهم : الأكوان أوانٍ حاملة للمعانى ، فاعلم أنه قد تقدم أنهم يطلقون على أسرار الذات وهى الخمرة الأزلية معانى لخفائها ولطاقتها ، فأشبهت المعانى من هذا الوجه .

فتحصل أن الحس لاقيام له إلا بالمعنى وهى معانى أسرار الذات ، فصار قيام الأشياء كلها بالله ولا وجود لها معه ، وهو الذى أشار إليه ابن الفارض بقوله :
وَقَامَتْ بِهَا الْأَشْيَاءُ ثُمَّ لِحِكْمَةٍ بِهَا احْتَجَبَتْ عَنْ كُلِّ مَنْ لَا لَهُ فَهْمٌ

أى قامت الأشياء كلها بالذات العلية أى بأسرارها اللطيفة الأزلية . وقولهم أيضاً : الذات عين الصفات ؛ والصفات عين الذات . فاعلم أنه لما كان لا ظهور للذات إلا من أنوار الصفات ، ولا قيام للصفات إلا بالذات ، والصفات لاتفارق الموصوف صار كأن هذا عين هذا ، فنطقوا بتلك العبارة تحويشاً للجمع وفراراً من الفرق ، وهو اصطلاح منهم ؛ سموا ماتكثف وظهر للحس صفات ، وما بطن من سر الربوبية ذاتا ومعنى ، والصفات لاتفارق الموصوف ، كما تقول فى الثلجة ظاهرها ثلج وباطنها ماء فالثلج صفات والماء ذات والثلج حس ، والماء معنى للطافته وخفائه صار كأنه معنى .

قال ابن عباس رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى :

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)^(١) .

قال : فى كل شىء اسم من أسمائه ، واسم كل شىء من اسمه ، فإنما أنت

بين أسمائه وصفاته وأفعاله ، باطنًا بقدرته ، ظاهرًا بحكمته ، ظهر بصفاته ، وبطن بذاته ، حجب الذات بالصفات ، وحجب الصفات بالأفعال ، وكشف العلم بالإرادة ، وأظهر الإرادة بالحركات ، وأخفى الصنع في الصنعة ، وأظهر الصنعة بالذوات ، فهو باطن في غيبه وظاهر بحكمته وقدرته :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) اهـ .

نقله شارح بداية السلوك هكذا عن ابن عباس رضى الله عنهما .
 فقله : حجب الذات بالصفات : أى حجب أسرار الذات بأنوار الصفات وهى أثرها .
 وقوله : وحجب الصفات بالأفعال ، لأن الأفعال ظروف للصفات ، لأنها أثر من آثارها ومظهرة لها .
 وقوله : وكشف العلم بالإرادة : أى أظهر ماسبق فى علمه بإرادته المخصصة لوقت إظهاره .
 وقوله : وأظهر الإرادة بالحركات : أى أظهر ماسبق من إرادته بظهور الحركات الدالة على ما أراد .
 وقوله : وأخفى الصنع فى الصنعة : أى أخفى الصانع فى صنعه .
 وقوله : وأظهر الصنعة بالذوات : أى أظهر قدرته فى الأجرام وسائر الذوات ، والله تعالى أعلم .

وقول شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه فى كتابه فى تفسير الذات والصفات إن كل ماهو جلال فهو ذات ، وكل ماهو جمال فهو صفات ، فإنما ذلك على وجه التشبيه ، فإن تجلى الصفات كله جمال ، لأنه محل نزهة أرواح العارفين ، وبه يرتقى أهل الدليل إلى معرفة رب العالمين ، وهو الذى شبهه الشيخ ابن مشيش بالرياض فى قوله : رياض الملكوت إلخ .
 وأيضاً هو الذى تمكن رؤيته وتحصل المعرفة به ، بخلاف تجلى الذات فإنه جلال محض ، إذ لو ظهر ذرة من نوره الأصلى بلا واسطة لاحترق الكون من أصله . وفى الحديث : « حِجَابُهُ النَّارُ » وفى رواية : « النُّورُ ، لَوْ كَشَفَ عَنْهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلُّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ » .

فصار تجلى الصفات كله جمال ، وتجلي الذات كله جلال ، فأطلق وجه التشبيه أن كل ما يشق على النفس فهو ذات . لأنه جلال كتجلي الذات ، وكل ما يخف على النفس فهو صفات لأنه جمال كتجلي الصفات ، والله تعالى أعلم . وإنما أطلت الكلام في هذه المسألة ، لأنني لم أر من تكلم عليها ولا من شفى فيها الغليل ، وكنت كثير البحث عنها فلم أجد من يشفيني فيها ، وهذا ما ظهر لي فيها وما أنتجته فكرتي ، والله تعالى أعلم ، وبالله التوفيق .

ثم استدل على ظهوره في المكونات بقوله تعالى :

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) .

فأشار إلى تفسير الظاهر والباطن بقوله :

[أظهر كل شيء بأنه الباطن ، وطوى وجود كل شيء بأنه الظاهر] .

قلت : مضمونه أن اسمه تعالى الباطن يقتضى ظهور الأشياء حساً ليكون باطناً بسبب ظهور حسها ، لأن الحس رداء أسرار المعاني ، واسمه الظاهر يقتضى بطون الأشياء : أى هلاكها واضمحلالها ، ليكون ظاهراً بما ظهر منها ، هذا معنى قوله أظهر كل شيء بأنه الباطن : أى بسبب أنه الباطن ليتحقق بطونه بها ، وطوى وجود كل شيء بسبب أنه الظاهر ليتحقق انفراده بالظهور فيها .

والحاصل : أن الحصر في قوله تعالى (هو الظاهر) يدل على أنه لا ظاهر معه فانطوى وجود الأشياء واضمحل لها . وقوله (هو الباطن) يدل على أنه لا باطن سواه فبطنت الأشياء كلها بعد ظهورها ، فدل كلامه سبحانه أن ما ظهر به هو الذى بطن فيه ، والذى بطن به هو الذى ظهر فيه وإلا لم يصح الحصر .

فإن قلت : المتقابلان لا يجتمعان كالضدين وكيف جمعتها في ذات واحدة ؟ قلت : لم يتواردا على محل واحد بل ذلك باعتبارين : فاسم الظاهر باعتبار الحس في عالم الحكمة ، واسم الباطن باعتبار المعنى في عالم القدرة . فالحكمة ظاهرة ، والقدرة باطنة .

أو تقول : ظاهر باعتبار مظاهر الربوبية ، باطن باعتبار قوالب العبودية . أو تقول : ظاهر باعتبار التعريف ، باطن باعتبار التكييف ، فالذات واحدة

والاعتبارات مختلفة وذلك كثير .

فتحصل أن الحق سبحانه ظاهر في بطونه ، باطن في ظهوره ، مظهر به هو الذى بطن فيه ؛ وما بطن به هو الذى ظهر فيه : أى مظهر فيه بحكمته هو الذى بطن فيه بقدرته ، وما بطن فيه بقدرته هو الذى ظهر فيه بحكمته ، وهو الذى قصده الشاعر بقوله :

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ
إِلَّا عَلَى أَكْمِهِ لَا يُبْصِرُ الْقَمَرَا
لَكِنْ بَطْنَتْ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِبًا
وَكَيْفَ يُعْرِفُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَا

والله تعالى أعلم .

تنبيه : قد كنت سألت الشيخين : أعنى شيخنا وشيخه عن الخمرة الأزلية قبل تجليها هل تسمى ظاهرة باطنة ، أو إنما تسمى باطنة فقط للطافتها حينئذ ؟ فأجابنى : بأن ماكان هو الذى ظهر وليس الذى ظهر غير ماكان فى الأزل : « كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ » .

يعنى أن الذات العلية كما كانت متصفة بصفات وأسمائها فى الأزل بقيت كذلك فيما لايزال ، فكان فى الأزل ظاهرًا باطنًا ، وبقي بعد التجلى كذلك ظاهرًا لنفسه باطنًا ، عن خلقه ، ماتجلى به ظاهرًا هو فيه أيضًا باطن . وقال القاشانى فى شرح تائية ابن الفارض مانصه بعد كلام : وأظهر الحق تعالى سر ذاته وصفاته فى مظاهر أفعاله ، وما كان لخصائه عليه قبل ذلك كما حكاه عن المحبوبة بلسان الجمع فى قوله :

مَظَاهِرُ لِي فِيهَا بَدَوْتُ وَلَمْ أَكُنْ عَلَى بِخَافٍ قَبْلُ مَوْطِنُ بَرَزَةٍ

ولكن ليتجلى باسمه الظاهر آخرًا كما كان متجليًا باسمه الباطن أولًا . والعجب كل العجب أنه تعالى مظهر بشيء من مظاهر أفعاله إلا وقد احتجب به كما قال :

بَدَتْ بِاحْتِجَابٍ وَاخْتَفَتْ بِمَظَاهِيرٍ عَلَى صَيْغِ الْأُكْوَانِ فِي كُلِّ بَرَزَةٍ

اهـ كلامه رضى الله عنه .

والتحقيق أن يقال : الحق تعالى لم يزل متصفاً بأسمائه وصفاته في الأزل وفيها لايزال ، لكن ظهور آثارها وقع فيها لايزال ، فكان متصفاً باسمه الظاهر والباطن في الأزل . وظهر بعد ذلك آثارها فيما لايزال ، والله تعالى أعلم . ثم بين كيفية النظر والاعتبار في المكونات لتعرف ظهوره تعالى فيها فقال : [أباح لك أن تنظر ما في المكونات ، وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات : قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، فبقوله : انظروا ماذا في السموات فتح لك باب الأفهام ، ولم يقل انظروا السموات لئلا يدل ذلك على وجود الأجرام] .

قلت : إنما أبرز الله هذه المكونات وأظهر هذه العوالم ليعرف بها ويظهر نوره فيها . قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)^(١) وقال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)^(٢) .

قال في لطائف المنن : فما نصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها ، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها ، تراها من حيث ظهوره فيها ولا تراها من حيث كونيتها ، قال ولنا في هذا المعنى :

مَا [أَقَامَ] لَكَ الْعَوَالِمَ إِلَّا لِتَرَاهَا بِعَيْنٍ مَنْ لَا يَرَاهَا
فَارَقَ عَنْهَا رُقًى مَنْ لَيْسَ يَرْضَى حَالَةَ دُونِ أَنْ يَرَى مَوْلَاهَا

فأباح لك أيها الإنسان أن تنظر ماذا في السموات والأرض من النور اللطيف الذى أقامت به الأشياء ، وما أباح لك أن تقف مع ذوات المكونات ، تقف مع القشر وتحجب عن اللب ، وقد تقدم قوله : الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة ، فمن وقف مع ظاهرها كان محجوباً ، ومن نفذ إلى باطنها كان عارفاً

محبوبًا ، ولأجل هذا السر قال تعالى (قُلْ اَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ)^(١) أى مافيهما من عظمتته ومعاني أسرار ذاته وكمال قدرته وإرادته وسائر صفائه ، فقد فتح لك باب الأفهام ، جمع فهم : أى فتح لك باب الفهم لتدخل بها من ظاهر القشر إلى باطن اللب ، حتى تعرفه فى كل شىء ، وتفهم عنه فى كل شىء ، ولو قال الحق تعالى : قل انظروا السموات ، لذلك على الأجرام ، وسد لك باب الأفهام وكيف يدلك على الأجرام وهى أغيار والأغيار مانعة من الدخول إلى شهود الأنوار ؟ ومثال ذلك فى التقريب لو قال لك قائل : انظر هذه الثلجة لذلك على ظاهر جرمها ، ولو قال لك انظر مافى هذه الثلجة لفتح لك باب الفهم إلى نظر مافى باطنها من الماء دون الوقوف مع ظاهر جرمها . واعلم أن الحق سبحانه ندب عباده إلى معرفة ذاته ودرجهم إليها شيئًا فشيئًا ، فمنهم من قصر ، ومنهم من وصل ، فدرجهم أولا إلى توحيد الأفعال وأنه لافاعل سواه فقال تعالى :

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)^(٢) ، (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ)^(٣) ، (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)^(٤) ، (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)^(٥) وقال فى فعل غير الآدمى : (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)^(٦) وفى شأن الطير : (مَا يُمِسُّكُمْ إِلَّا الرَّحْمَنُ)^(٧) وقال تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)^(٨) .

أى فى قهر قبضتنا ، مقدرة آجالها ، مقسومة أرزاقها ، معدودة أنفاسها محفوظة أجسامها معلومة أماكنها ، ظاهرة أشباحها باطنة أنوارها .

وقال فى توحيد الصفات ، وأنه لاسميع ولا بصير ولاقدير ولا متكلم إلا الله :

- | | | |
|----------------------|----------------------|-------------------|
| (١) يونس : ١٠١ . | (٢) القصص : ٦٨ . | (٣) هود : ١٠٧ . |
| (٤) الصافات : ٩٦ . | (٥) البقرة : ٢٥٣ . | (٦) هود : ٥٦ . |
| (٧) الملك : ١٩ . | (٨) الأنعام : ٣٨ . | |

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)^(١) .

أى دون غيره ، فلا سمع ولا بصر إلا به سبحانه . وقال تعالى :
(إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)^(٢) وقال تعالى : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
الله) إلى غير ذلك من الآيات .
وقال تعالى فى توحيد الذات : (وَهُوَ اللهُ فى السَّمَوَاتِ وفى الأرض)^(٣)
(اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ)^(٤) .

على تفسير أهل الإشارة وهم أهل الباطن . وقال :
(فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ)^(٥) (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ
بِالنَّاسِ)^(٦) (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله)^(٧) .
وقال فى محو الواسطة : (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)^(٨) ، (أَنَا صَبَبْنَا
الماءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأرضَ) أى بالحرث (شَقًّا)^(٩) .

ويحتمل أن تكون منها أو من توحيد الأفعال :
(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى)^(١٠) ، (وَلَكِنَّ اللهَ أَلْفَ
بَيْنَهُمْ)^(١١) .

وقد يجمع الحق تعالى فى آية واحدة توحيد الصفات ، ويرقى إلى توحيد
الذات كقوله تعالى :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فى الآفَاقِ وفى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقُّ) .
ثم رقاهم إلى الشهود بقوله :

(١) (الإسراء : ١)	(٢) (الذاريات : ٣٠)	(٣) (الأنعام : ٣)
(٤) (النور : ٣٥)	(٥) (البقرة : ١١٥)	(٦) (الإسراء : ٦٠)
(٧) (الفتح : ١٠)	(٨) (القيامة : ١٨)	(٩) (عبس : ٢٥ ، ٢٦)
(١٠) (الأنفال : ١٧)	(١١) (الأنفال : ٦٣)	

(أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ، (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ
مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ)^(١) وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

ثم رقاهم من الغيب إلى الشهادة بقوله :

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . أَلَا يَعْلَمُ
مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(٢) .

فتحصل أن الأشياء كلها قائمة بالله أثبتها ليعرف بها ، ثم محاهها بوحدانيته
كما أشار إلى ذلك بقوله :

[الأكوان ثابتة بإثباته ، محوثة بأحدية ذاته] .

قلت : الأكوان : هى ما ظهر فى عالم الشهادة . أو تقول : ما دخل عالم
التكوين ، وهى موجودة بوجود الحق ، قائمة به ثابتة بإثباته ، ليعرف بها ،
محوثة بأحدية ذاته لانفراد وجوده ، فمن أثبتها لنفسها فقد جهله فيها وحجب
بها عن شهود موجدها ، ومن أثبتها بالله فقد عرف فيها وشهد فيها مولاه ؛
فالثبوت للأكوان أمر عرضى ، والحق اللازم هو وجود أحدية الحق تعالى ،
والأحدية مبالغة فى الوحدة ، ولا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يتمكن
أن يكون أشد وأكمل منها ، فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان وبطلانها بحيث
لا توجد ، إذ لو وجدت لم تكن أحدية ولكان فى ذلك متعدياً واثنينية كما قيل :

أَرْبٌ وَعَبْدٌ وَنَفَى ضِدٌّ قُلْتُ لَهُ لَيْسَ ذَاكَ عِنْدِي
فَقَالَ مَا عِنْدَكُمْ فَقُلْنَا وَجُودٌ فَقَدْ وَفَّقْتُ وَجَدٌ
تَوْحِيدٌ حَقٌّ بِتَرْكِ حَقٍّ وَلَيْسَ حَقٌّ سِوَايَ وَحْدِي

ومعنى كلام الشاعر : الإنكار على من أثبت الفرق ، بأن جعل للعبودية محلاً
مستقلاً منفصلاً عن أسرار معانى الربوبية قائماً بنفسه ؛ ولا شك أن العبودية
تضاد أوصاف الربوبية على هذا الفرق وأنت تقول فى توحيد الحق لا ضد له ،

فقد نقضت كلامك ، ولذلك قال ونفى ضد ، فالواو بمعنى مع . وهو داخل في الإنكار أى أوجد رب وعبد مستقل مع نفى الضد للربوبية ، والعبودية تضاد أوصاف الربوبية . والحق أن الحق تعالى تجلى بمظاهر الجمع في قوالب الفرق وظهر بعظمة الربوبية في إظهار قوالب العبودية ، فلا شيء معه .
وقوله في الجواب : وجود فقد : أى عندنا وجود فقد سوى وفقد وجود النفس .

وقوله توحيد حق بترك حق : أى توحيد حق الحق بترك حق الغير ولا غير ، ولذلك قال وليس حق موجود سوى وجودى وحدى ، تكلم على لسان الفناء ، والله تعالى أعلم .
وقال آخر :

سِرُّ سَرَى مِنْ جَنَابِ الْقُدُسِ أَفَنَانِي
لَكِنْ بِذَاكَ الْفَنَى عَنِّي قَدْ أَحْيَانِي
وَرَدَّنِي لِلْبَقَا حَتَّى أُعْبِرَ عَنْ
جَمَالِ حَضْرَتِهِ لِكُلِّ هَيْمَانٍ
وَصِرْتُ فِي مَلَكُوتٍ مِنْ عَجَائِبِهِ
لَمْ أَلِفْ غَيْرَ وُجُودٍ مَالَهُ ثَانِي

وأشيد المؤلف لنفسه في لطائف المنن ، يوصى رجلا من إخوانه اسمه حسن :

حَسَنُ بِأَنْ تَدَعَ الْوُجُودَ بِأَسْرِهِ
حَسَنُ فَلَا يَشْغَلُكَ عَنْهُ شَاغِلُ
وَلَيْنُ فَهَيْمَتَ لَتَعْلَمَنَّ بِأَنَّهُ
لَا تَرَكَ إِلَّا لِلَّذِي هُوَ حَاصِلُ
وَمَتَى شَهِدْتَ سِوَاهُ فَاعْلَمْ أَنَّهُ
مِنْ وَهْمِكَ الْأَدْنَى وَقَلْبِكَ ذَاهِلُ

حَسْبُ الْإِلَهِ شُهُودُهُ لِوُجُودِهِ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَقُولُ الْقَائِلُ
 وَلَقَدْ أَشَرْتُ إِلَى الصَّرِيحِ مِنَ الْهُدَى
 دَلَّتْ عَلَيْهِ إِنْ فَهِمْتَ دَلَائِلُ
 وَحَدِيثُ كَانَ وَلَيْسَ شَيْءٌ دُونَهُ
 يَقْضِي بِهِ الْآنَ اللَّيْبُ الْعَاقِلُ
 لَا غَرَوْ إِلَّا نِسْبَةً مَثْبُوتَةً
 لِيُذَمَّ ذُو تَرْكِ وَيُحْمَدَ فَاعِلُ

هذا آخر الباب الرابع عشر :

وحاصلها : تحوُّش العباد إلى الله وتحمُّيه إليهم ، بذكر ما اشتمل عليه الحق سبحانه من الكرم والإحسان ، وغاية اللطف والمبرة والامتنان ، وذلك أنه سبحانه من علينا أولاً بالطاعة والعمل ، وتفضل علينا ثانياً بالقبول مع ما اشتمل عليه عملنا من النقص والخلل ، ثم إذا وقعت منا معصية أو زلل غطانا بستره وبمغفرته لنا تفضلاً ، وإذا توجهنا إليه بقلوبنا سترنا منها وعصمنا ليعظم قدرنا ، ويظهر شكرنا. فنتخذه صاحباً ، وندع غيره جانباً ، فحينئذ تشرق في قلوبنا أنوار اليقين ، ونرحل إلى الآخرة في أقرب حين . ثم تشرق علينا أنوار الإحسان ، فتتنوى لنا رؤية الأكوان ، بشهود نور الملك الديان ، فحينئذ ينشر محاسننا للعباد ؛ فيقبلون علينا بالثناء والمحبة والوداد ، كما أبان هذا بقوله في أول الباب الخامس عشر رضى الله عنه :